العدد الأول • المجلد الأول • السنة الأولى ٢٠٠١

حولية تعنى بشؤون الآثار والتاريخ والتراث

المسند

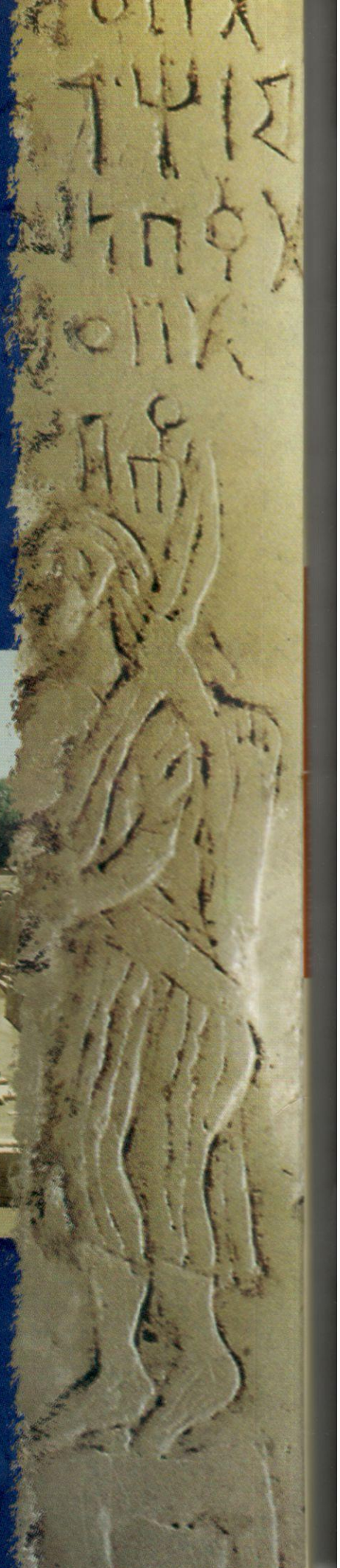

قواعد النشر في الحولية

- أن يكون البحث جديداً ومتميزاً.
- أن لا يكون قد سبق نشره أو مرسلاً للنشر في مجلة أو حولية أخرى، على أن يقدم كاتب البحث تعهداً يؤكد ذلك.
- أن لا تزيد عدد صفحات البحث بما فيها قائمة المصادر والمراجع والصور والأشكال الايضاحية عن 15 صفحة.
- يشار في النص إلى المصادر والمراجع بكتابة الاسم الأخير للمؤلف وسنة النشر ورقم الصفحة أو الصفحات على أن يكون ذلك بين قوسين. ويمكن كتابة الهوامش أسفل الصفحات أو يشار إليها رقماً داخل النص ويتم إجمالها في نهاية الموضوع.
- ترسل البحوث مطبوعة وتزود باسم الباحث أو الباحثين وعنوانه أو عناوينهم الثابتة بالكامل.
- تقبل المجلة الأبحاث المكتوبة باللغة العربية والانجليزية....
- يقدم مع كل بحث ملخص لا يقل عن 150 كلمة ولا يزيد عن 200 كلمة.
- يقدم البحث من نسختين على أن يكون الأصل منها.
- يرافق البحث الصور والأشكال والخرائط الايضاحية. ترسم الأشكال بالحبر الصيني على ورق (كلك)، أما الصور الفوتوغرافية يجب أن تكون عالية الجودة والمعالم فيها واضحة، على أن تعطى الصور والأشكال أرقاماً متسلسلة.
- يطبع البحث على وجه واحد من الورقة، وتأخذ كل ورقة رقمها الخاص، ويثبت فيها الاسم الأخير للكاتب أو أسماء الكتاب.
- بالنسبة للبحوث والدراسات المقدمة إلى المؤتمرات أو الندوات فيشار إلى ذلك في حاشية البحث.
- يوضع خط تحت المصادر والمراجع والمجلات، أما المقالات والأبحاث فإنها تكتب بين فاصلتين مقلوبتين. مثال: عبدالله، يوسف محمد، 1990. أوراق في تاريخ اليمن وآثاره. بيروت، دار الفكر المعاصر.

غالب، عبده عثمان، 1995. "نتائج المسح الأثري في منطقة حضور همدان" الاكليل 23:210-231.

- يرفق البحث بقائمة تحمل ثبتاً كاملاً بالمصادر والمراجع التي تم استخدامها في البحث، مع مراعاة التسلسل الأبجدي في القائمة.
- البحوث التي لا تتوفر فيها شروط النشر لن ينظر فيها.
- لا تعاد المادة غير المنشورة لأصحابها.

توجه المراسلات إلى رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور / يوسف محمد عبدالله

رئيس الهيئة العامة للآثار والمتاحف والمخطوطات

رئيس تحرير حولية المسند

شارع سيف بن ذي يزن / صنعاء - الجمهورية اليمنية

صندوق بريد: 1136

تلفون: 1-276767 (967)

فاكس: 1-275379 (967)

الاشتراك السنوي للمؤسسات

في اليمن: المؤسسات 2000 ريالاً يمنياً

الأفراد 1000 ريال

في البلاد العربية: المؤسسات 20.00 دولاراً أمريكياً

الأفراد 15.00 دولاراً

في البلاد الأجنبية: المؤسسات 30.00 دولاراً أمريكياً

الأفراد 20.00 دولاراً

هيئة التحرير

رئيس التحرير

أ.د. يوسف محمد عبد الله

نائبا رئيس التحرير

أ.د. حسين عبد الله العمري

أ. مطهر علي الإرياني

مدير التحرير

د. عبده عثمان غالب

المحررون

د. مديحه محمد رشاد

د. أحمد يحيى الغماري

د. عبد العزيز بن عقيل

أ. مهند السياني

سكرتارية التحرير

محمد طه الأصبحي

خالد العنسي

حسين العيدروس

الاخراج الفني

سامو برس غروب

التنفيذ

دار الفكر المعاصر - بيروت

الطباعة

مطابع المستقبل - بيروت

Al-Musnad

Editor-in-chief

Yusuf M.Abdallah

Vice-Editor-in-chief

Hussain A. al-Amri

Mutahhar A. al-Iryani

Managing Editor

Abdo O. Ghaleb

Editors

Madiha M. Rashad

Ahmad Y. Ghumari

Abdulaziz B. Aqil

Muhannad al-Sayyani

Technical Production

Samo Press Group

Execution

Dar Al-Fikr Al-Mouaser, Beirut

Printing

Al-Mustaqbal Press, Beirut

الفهرس

الآثار تراث للجميع ____ 2

رسالة امرأة ـ نقش بخط الزبور اليماني ____ 5

ثقافة مجتمعات العصر البرونزي ____ 9

الخطة الشاملة لمشروع تطوير المتحف الوطني بصنعاء (1998م ـ 2003م) ____ 16

نشاط الهيئة العامة للآثار والمتاحف والمخطوطات خلال الفترة (98م ـ 99م) ____ 28

مواقع وأدوات من العصور الحجرية في اليمن ____ 45

مطالعات ____ 50

تقرير عن أعمال المسح والتنقيب الأثري في موقع مقولة ____ 52

متحف سيئون ____ 54

وحدة الآثار والحضارة ____ 57

الديانة في اليمن القديم ____ 64

قضايا أثرية ____ 67

الخطة العامة للهيئة العامة للآثار والمتاحف والمخطوطات ____ 69

أخبار أثرية ____ 79

وثائق: قانون الآثار وتعديلاته ____ 82

* Some Notes on Two Yemeni Contemporary Documents ____ 90

* Canadian Archaeological Mission of the Royal Ontario Museum In Yemen ____ 93

وحدة الآثار والحضارة

أ.د. يوسف محمد عبد الله

إن هذه الومضات التي نقدمها لا نهدف منها إلى رصد الدلائل التي تؤكد الوحدة الحضارية للوطن العربي، ومدى عمق الروابط الأخوية بين أبناء الأمة العربية ووحدة وطنهم جغرافياً وتاريخياً، فمعظم ذلك من الأمور المعروفة التي لا ينكرها إلا جاحد مكابر، ولكن الهدف هو استحضار ومضات جغرافية وتاريخية دالة، حتى لا ننسى الثوابت والأوابد والسَّوابق في غمرة أحداث الحاضر وغفلات العصر، وحتى تطمئن قلوب الحائرين وتنقشع الغشاوة عمن ران على أبصارهم قَتَر الدهر، فغرقوا في مهامه الجزئيات ولَمّا يدركوا مقاصد الكليات، ألهتهم معرفة العرض عن قبض الجوهر.

لهؤلاء ولمن قد يرى أن في الزيادة في هذا الموضوع إفادةٌ نورد طرفاً من لُمَع الجغرافيا، وومضات التاريخ الدالة على وحدة الأرض والأمة منذ سالف العصر والأوان، قال تعالى: ﴿وذَكِّرْ فَإنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ المُؤْمِنينَ﴾ (الذاريات:55/51). وحسب الحاضر أن يكون دالاً على الماضي (وطن عربي وأمة عربية، يحدوه هذا الوعي الراسخ المتجدد على مرِّ الأيام الذي طالما غنى أنشودة العروبة، ومرابع الوطن العربي وأماني الأمة العربية؛ وعي حقيقي نتلمس أثره في كل عصر، يتخذ مظاهر متعددة حسب ما تمليه ظروف الزمان والمكان، وتفرضه إرادة الحياة وإيقاعها مدّاً وجزراً. كل ذلك ينبئنا أن هذه الأرض العربية عبر مسار الزمن ومنعرجاته وتحولاته قد شهدت حضوراً عربياً هائلاً مستمراً، وتشكلت من خلال ذلك الحضور قسمات شخصية عربية، بفعل تأثير إمكان المكان ونبض الزمان.

كما لعبت هذه الأرض من خلال حركة الحياة عليها دوراً حاسماً على كل المستويات المحلية والعالمية، في صياغة تاريخ طويل حافل، تمثل في إنجازات حضارية كبرى معلومة، غطت شتى مجالات النشاط البشري، حتى ملأت أسماع الدنيا وتردد في الأصقاع صداها ودويّها..

(كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر).

وأضحت بلاد العرب في سياق الزمان وإطار المكان طيّبة النواة خصبة التربة، لكي تنبت في مرابعها تلك النخلة الباسقة التي طالما أهدت البشرية بذور الحضارة، وحملت إلى الناس رسالة الهدى والرحمة، وأجزلت للعالمين، بفضله تعالى، عطاء الخير السماوي العظيم.

هي نخلة مباركة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، نبتت في القلب من جزيرة العرب السعيدة، ونما فرعها واشتدَّ عودها في هلالها الخصيب، ومدَّت ظلها الوافر شرقاً وغرباً، وتنامت فصائلها وسيطرت عشائرها حتى بلغت مناهل النيل والرافدين، وتجاوزت أسيافَ بلاد المغرب وأرجاء بحر الظلمات. وكان كلما حان إخصابها لقحتها رياح الحياة شرقاً وغرباً، وأخرجت منها طلعها البديع، فكانت ثمرة يانعة تؤتي أكلها رطباً جنياً كل حين بإذن ربِّها، ويتجدد عطاؤها على الرغم من أهوال الدهر وأعاصير الكون وعوادي الظالمين من بني الإنسان. هي حقاً نخلة العرب السامقة دائمة الخضرة تساقط ثمرها حين القطاف ولا تسقط أوراقها في الخريف لتبدل جلدها، تضرب بشروسها في أعماق الأرض، ويصل جناها إلى شتى مرابع الوجود.

يغدق سعفها ويخضلُّ عسيبها كلما جاءها غيث السماء، فتلقح كِشافاً في مواسم الخير، وتهتز وتربو، تنتج من الثمر ما تنوء بحمله، وينعم بفضل كرمها القانع والمعتر، ويتفيأ ظلالها السانح والشارد، والحاضر والبادي. عمرها موغل في القدم لا يعلمه إلا الله. ولكن مساند الدهر تروي أنها كانت هناك قبل خمسة آلاف عام وقيل: قبل ذلك بقرون غير معدودة، تنمو وتكبر وتتجدد وتزدهر. كأنها (نسر لبد). وتتوالى الأجيال وتتقلب الأحوال، ولكن لون ردائها لم يتحول، مذاق رطبها لم يتغير، وشميم طلعها هو إياه لم يتبدل؛ شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية فضلها محسود، وظلها ممدود على الغبراء ما تعاقب الليل والنهار، وسيظل كذلك إلى ما شاء الله.

قالوا: إن التاريخ هو ظل الإنسان على الأرض، وإن الجغرافيا هي ظل الأرض على الزمان. وفي اللغة ظل الشيء هو شخصه لمكان سواده أو هو في الحقيقة ضوء الشعاع دون الشعاع، أو هو خيال الشيء إذا ما أرسلت عليه أشعة الشمس، أو هو الصورة (السلويت) التي تلازم صاحبها، وتعكس الخطوط الخارجية المميزة له. ويستعار اللفظ فيقال: (ظلُّ الله في الأرض). وفي الحديث: ((الجنة تحت ظلال السيوف)).

ومعنى التاريخ ظل الإنسان على الأرض كناية عن شخصه أو أثره الذي يلقيه على هذه الدنيا وهو يسعى فيها ويعمرها. والظل وإن كان خيالاً أسود لا يعكس تفاصيل ملامح الصورة التي يعكسها، إلا أنه خيال مميز يلقيه الإنسان عن قرب، فترتسم الخطوط العامة بجلاء وتدل عليه. وكأنه شبيه بما كنا نعهده في مسرح (خيال الظل)، أو على حدِّ قول القائل: (الدنيا مسرح وبنو الإنسان هم الممثلون). فيكون التاريخ بهذا المعنى هو صورة حركتهم وخيال شخوصهم، وهم يؤدون أدوارهم على مسرح الحياة الكبير.

والجغرافيا ظل الأرض على الزمان، كناية عن الصورة - الإطار التي تعكس أثر المعالم الطبوغرافية والموقع والتضاريس الطبيعية وإمكانات البيئة وحدود المكان - على شاشة الزمن ملازمة إياها ملازمة الظل لشيئه، أو كأن ظل المكان بهذا يرسم مسار الزمن، ويضبط إيقاع حركة الإنسان الدائبة التي يُؤديها في إطار هذا المسار على أديم المعمورة وعلى امتداد هذا المسار. وهي كيانات متلازمة ثلاثة المكان والإنسان والزمان. فأما المكان في حديثنا هذا فهو بلاد العرب، وأما الإنسان فأخص منه أمة العرب التي عاشت على تلك البلاد، وأما الزمن فأعود إلى فجر التاريخ إلى ما قبل خمسة آلاف عام. ترى ما الذي يجمع هذه الكيانات الثلاثة؟

في البدء ينبغي أن نقرر أن الوحدة السياسية شكل من أشكال التجمع البشري المنظم، تتجلى فيه إرادة الشعوب، ومضاء عزم قادتها في فترات النضج والعطاء. أما وحدة الأرض والأمة والحضارة والتاريخ فأمور عميقة الغور تتشكل عبر الزمان، سنة الله في خلقه تفرضها عوامل البيئة والمعاش، وتمليها حقائق الوجود، وتعاقب الليل والنهار، وتذكيها ديناميكية التقدم، والحاجة إلى اللحمة المتماسكة والبحث عن الأفضل وحسن الاستفادة مما سخره الله من خيراته في هذا الكون.

وهكذا صاغت حقائق التاريخ والجغرافيا لبني الإنسان من أبناء يعرب بحكم الزمان والمكان أسباب التوطين والتلاحم والتجانس، لتشكل عبر الزمن محصلة حضارية كبرى، لا ينكر وميضها سوى أعمى البصر والبصيرة، هي أمة العرب في بلاد العرب، تجلت في الحضور البشري الحي على هذه البلاد، وبرزت في التواصل الثقافي المستديم بين أقاليمها، وظهرت منذ فجر التاريخ على مسرح الحياة كياناً سوياً، يتشكل دوماً بنماء وإبداع، ونسيج أمة يكتسب الوهج والانديا ح والأصالة والركانة عبر التاريخ. التسمية ليست المشكلة فمن سكن جزيرة العرب وتكلم العربية وصار همّه عربياً فهو عربي، أما ماذا كان يسمى أصل هذا الإنسان قبل عشرة آلاف سنة؟ لا ندري ولا يفيد كثيراً أن ندري. وما يمكن أن نقوله دون تردد: هو أن ما نحن عليه اليوم هو حقاً استمرار لما كنا عليه بالأمس، وأن الجغرافيا والتاريخ يلقيان ظلالهما علينا شئنا أم أبينا؛ الهوية عرب (بدوهم وحضرهم)، (أعرابهم وهجّارهم) والإسلام عربي.. والوطن جزيرة العرب، وبلاد العرب وديار العرب والوطن العربي والإقليم العربي. والمنطقة العربية وأرض العرب، والمشرق العربي والمغرب العربي والشرق الأوسط أو الشرق الأدنى، فكلنا كما قيل في الهم شرق، وكله كما قيل آت من الشرق، والغرب يبدأ حيث ينتهي الشرق. البلاد العربية هي مهد الحضارات، ومخرج النبوءات ومعدن الرسالات، كرمت بالبيت الحرام البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً، وبها مركز الإسلام ومهاجر نبيه، وبها بيت المقدس وبها الوادي المقدس طوى، وطور سيناء،

وآثار الأنبياء ومنابت الأتقياء، ومحافد الأصفياء، وبها الآثار العظيمة وعجائب الدنيا، بها سد مأرب، وإرم ذات العماد، والجنائن المعلقة، وجبال الأنباط المنحوتة، ومدائن صالح، ومخطوطات البحر الميت، وكنوز بابل وآشور، وأهرامات الجيزة وسقارة ودهشور، ومنارة الإسكندرية وأرض الجنتين.

قد يختلف الناس حول حدود الوطن العربي عبر التاريخ.

أولاً- لأن بعضهم يفترض في تعريف الوطن حدود الكيان السياسي، ولم تكن بلاد العرب تؤلف كياناً سياسياً، أو تتدرج ضمن كيان سياسي شامل واحد، اللهم إلا في فترة معينة إبان امتداد الخلافة الإسلامية. وبعضهم يرى أن لفظ عرب لم يكن يطلق على أمة معينة في العصور التاريخية القديمة، وعندما استعمل اللفظ في الألف الأول ق.م لم يكن يدل على قوم يعيشون على امتداد هذه البلاد الشاسعة التي نعرفها اليوم، وإنما كان يدل على سكان الصحراء من البدو.

ومنهم من يرى أن وطن العرب هو شبه جزيرة العرب، وتقع بين مياه الخليج والمحيط الهندي والبحر الأحمر، شبه جزيرة تحاط بالمياه من ثلاث جهات، ولا تجاوز تخوم بادية الشام. ولكن مثل هذه الآراء في الواقع لا تعبر عن الحقيقة كلها، وإنما تذكر أشياء وتغفل أشياء أخرى. فمثلاً مما ينبغي أن يقال في هذا الصدد: إن الصحراء هي التضريس الطبيعي لبلاد متصلة ومتجانسة، وتمتد من الخليج إلى أطراف المغرب من الشمال الإفريقي؛ وإن هذه الصحراء محاطة بحواجز طبيعية، إما المياه أو الجبال أو السافانا، وإنه على امتداد هذه الأطراف مناطق جبلية أو مراع خصبة، وإنه يتخلل هذه الصحراء أنهار دائمة الجريان ووديان جافة، وإن المناخ المداري غالب عليها، وإنها تتأثر برياح موسمية صيفية وشتوية بحكم موقعها، وإن الغالب على سكان هذه الصحراء هو التنقل بحثاً عن الماء والكلأ. وكان هناك حوار مستديم بين مناطق الاستقرار ومناطق التنقل، وكان للجمل دور كبير في عملية الاتصال البشري والتجاري بين مناطق هذه الأرض. ولعبت طرق التجارة والأنهار دوراً كبيراً في تعزيز تلك الصلات، مما أوجد قواسم مشتركة في سبل المعاش، وفي مناحي الثقافة سواء أهل الوبر منهم أو أهل المدر، ومما ألف دوماً ما يشبه الوعاء الواحد: وحدة جغرافية مترابطة الأجزاء متصلة بعضها ببعض، مفتوحة السبل للتنقل والهجرة والتبادل. وكان المؤرخون الكلاسيكيون من اليونان والرومان يطلقون على هذه الوحدة الجغرافية اسماً واحداً هو بلاد العرب. وتشمل عند بطليموس كل بلاد اليمن وبلاد الشام وشبه جزيرة سيناء وما هو شرق نهر النيل من أرض مصر.. وقبل أكثر من ألف عام اعتبر الحسن بن أحمد الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) أن هذه الجزيرة تشمل بلاد اليمن وبلاد الشام كله إلى حدود شمال الفرات وجزيرة العراق أي ما بين النهرين وشبه جزيرة سيناء وجزء كبير من شرق مصر. فقد جاء في هذا الكتاب ما يلي:

((وإنما سميت بلاد العرب الجزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها. وصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن الفرات القافل من بلاد الروم (تركيا حالياً) يظهر بناحية قنسرين، ثم انحط على الجزيرة (ما بين النهرين) وسواد العراق حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأبلة وامتد إلى عبادان. وأخذ البحر من ذلك الموضع مغرباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفاً علياً، فأتى منها على سفوان وكاظمة ونفذ إلى القطيف وهجر وأسياف البحرين وقطر وعمان والشحر، ومال منه عنق إلى حضرموت وناحية أبين وعدن ودَهْلَك. واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن، بلاد فرسان وحكم والأشعريين وعك ومضى إلى جدة ساحل مكة، والجار ساحل المدينة وساحل الطور وخليج أيلة ساحل راية - كورة من كور مصر البحرية - حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها. وأقبل النيل من غربي هذا العنق، من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر معه، حتى دفع في بحر مصر والشام، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها، وأتى على صور ساحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق، ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق...)).

ويميل كثير من العلماء المحققين إلى أن الهجرات القديمة من جزيرة العرب لم تقتصر على بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين وإنما تعدَّتها أيضاً إلى بلاد المغرب. وعلى الرغم من أن الدراسات ما زالت قاصرة في هذا المجال إلا أن مؤشرات عديدة تومئ إلى ذلك. ولا ننسى الحوار المستفيض الذي يدور اليوم حول أصل قبائل البربر وصلتهم بقبائل اليمن، وتدل الدراسات اللغوية الحديثة أن هناك مجموعات لغوية أساسية ذات أصول

مشتركة مثل مجموعة اللغات الهندية الأوروبية، ومجموعة اللغات الأورالية ومجموعة اللغات التركية، ومجموعة اللغات السامية الحامية. أي إن اللغة العربية الأصل والمصرية القديمة والبربرية الليبية تكون مجموعة لغوية أساسية واحدة، وإن أصولاً لغوية مشتركة تجمع بين اللغات التي انتشرت في جزيرة العرب ومصر وشمال إفريقيا، وإن مجموعة اللغات السامية الحامية انتشرت وتمازجت وتقاربت واختلطت ضمن وعاء واحد، هو ما نطلق عليه اليوم بالوطن العربي. وليس هنا مجال الحديث بالتفصيل عن انتشار السكان في هذه البقاع وهجراتهم سواء بين بلاد اليمن وبلاد الشام وشمال إفريقيا، أو هجراتهم من بلاد الرافدين إلى مصر وليبيا، أو هجرات الهكسوس إلى مصر، على أن حركة الفتوحات الإسلامية خير مثال على سهولة هذه الحركة وقوة انتشارها.

ولا ريب أن قوة الإسلام الدافعة كانت هي سبب ذلك الانتشار والنجاح السريع، ولكن على المرء أن يتبين أيضاً عملية التجانس والتمازج التي شملت مصر والمغرب إبان الفتح وبعده، وثبات الشخصية الإسلامية العربية هنالك، على الرغم من الهزات والتحولات، بينما أخفقت تجارب أخرى في ديار الإسلام وهي على بعد كيلو مترات من الثغور العربية الأصل ولم تجنح إلى التعريب بل ناوأته. إن حضارات بلاد اليمن والجزيرة العربية وبلاد الشام وبلاد العراق وبلاد مصر والمغرب نشأت وترعرعت منذ قديم الزمان ضمن منطقة جغرافية واحدة، وإقليم بشري واحد. وهي في مجملها دوائر حضارية متداخلة متجانسة متكاملة، وكانت حواضر هذه المنطقة منطلقات للتجارب البشرية الرائدة.

وإذا كانت مراكز التمدن البشري الأولى قد اعتمدت الزراعة القائمة على الرّي سبيلاً إلى إنشاء حضارات راقية، فإن الشواهد الأثرية تنبئنا أن بلاد النيل وبلاد الرافدين وبلاد الشام وبلاد اليمن هي أهم المراكز المدنية التي انطلقت بالتجارب الأولى في زراعة القمح والشعير واستئناس الحيوانات. وليس من قبيل الصدف أن تكون في اليمن أرقى تقنيات ومنشآت للري عرفها العالم القديم على ضفاف الوديان، أو أن تنشأ على ضفاف وادي النيل ووادي الرافدين أوسع شبكة ري وأخلدها ذكراً عبر التاريخ.

فلا غرابة أن تسمى بلاد مصر قديماً (كمت) ومعناها أرض السواد. والسواد كناية عن الاخضرار والزراعة، وعرفت بلاد العراق بأرض السواد في العصور الإسلامية، كما أطلق على بلاد اليمن، اليمن الخضراء، بل إن من التسميات التي تتردد في مؤلفات علماء التاريخ والجغرافيا في العصر الحديث تسمية الهلال الخصيب بالنسبة لبلاد الشام والعراق في شمال الجزيرة، وعند بعضهم تؤلف بلاد مصر والمغرب هلالاً خصيباً آخر في شمال القارة الإفريقية. وأن مراكز الحضارة اليمنية القديمة في اليمن السعيد، حيث الأرض الطيبة والمروية تؤلف هلالاً خصيباً ثالثاً على أطراف الفلاة العربية في جنوب الجزيرة. ومثلما كانت بلاد الشام والعراق بالنسبة لبلاد مصر هي بلاد الشمال وبلاد البونت واليمن بلاد الجنوب.. فإن جزيرة العرب كانت تقسم عادة إلى بلاد الشمال وبلاد الجنوب، أو ما كان يعرف بلغتهم القديمة بلاد الشام وبلاد اليمن. ولا يهتمون عادة بتقسيم المشرق والمغرب وذلك لاستطالة الرقعتين، أما بلاد العرب بالمعنى الواسع فتقسم عادة إلى بلاد المشرق وبلاد المغرب كما فعل ابن سعيد المغربي في مؤلفه (المُشرق والمُغرب) عندما قسم العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي إلى شطرين، وتضمن ذلك المشرق العربي والمغرب العربي، ويقال: المشارقة والمغاربة.

إن الوطن العربي هو مهد الحضارات القديمة الرائدة، ومراكزه الحضرية من أبرز المنطلقات التي انطلقت منها التجارب الإنسانية الأولى في مجالات عديدة، وكانت إشعاعاتها الإبداعية إسهاماً قيماً في إثراء مسار التجربة البشرية عبر التاريخ، وكان الوطن العربي هو أرض الرسالات السماوية التي حملها أولو العزم من الرسل في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكانوا رسل العلم والنور في عالم الجهالة والضلال، وكانوا رسل التوحيد في عالم الوثنية والشرك.

والوطن العربي هو البقعة المباركة التي اختارها الله جلَّ شأنه مهبطاً لوحيه ومبعثاً لنبيه محمد (، وقوم هذا النبي العربي الكريم هم الذين كرمهم الله بحمل أمانة رسالة الإسلام والدعوة إلى دينه سبحانه وتعالى الذي ارتضاه للناس كافة، ومنها فاضَ دين الإسلام على سائر البلاد شرقاً وغرباً.

وتخبرنا المادة الأثرية التي تتكشف في العصر الحديث يوماً بعد يوم، أن بلاد العرب بهذا المعنى الشامل المتواتر بطريقة مباشرة وغير مباشرة، كانت مسرحاً

أصيلاً، مثّل فيها أول فصل حضاري راق في تاريخ البشرية، وفي تربتها غرست الفصول الثابتة التي نمت عليها شجرة الحضارة، وعلى أرضها وضعت اللبنة الأولى التي حددت معالم المسيرة التاريخية لما تلاها من القرون. فعلى هذه الأرض بدأت الاكتشافات الهامة الرائدة في ميادين الحضارة، ونشأت الحواضر والدول، وظهرت المعارف والفنون، واخترعت الكتابة الأبجدية، وقامت عبادة الله والتوحيد، وازدهرت علوم الفلك والكيمياء والتحنيط والتعدين والزراعة وتقنية الري. وكان لتلك المنجزات الرائدة أثر كبير على الحضارات اليونانية والرومانية، كما كان بعد ذلك للحضارة الإسلامية الأثر البالغ على نهضة الحضارة الأوربية الحديثة. وتدل اللُّقى الأثرية أيضاً على أن منشآت تلك الحضارة وإنجازاتها على امتداد الأرض العربية لم تكن مجرد حبات متناثرة، وإنما كانت في الواقع حبات عقد نضيد ودوائر حضارية متداخلة ووحدة ثقافية متماسكة. وغدا اليوم واضحاً للعيان أن تلك المراكز الحضارية التي تبدو متباعدة ومختلفة، كانت في حقيقة الأمر مرتبطة بوشائج ثقافية وتجارية وثيقة. وكلما تقدم البحث الأثري، وكثرت الاكتشافات وامتدت رقعة العمل الأثري، وتجنب العلماء الآراء المسبقة والنزعات الدفينة فإن الصورة ستتضح وتتكامل حتى تبدو وكأنها ظلال ألوان متعددة رسمت بفرشاة فنان واحد.

يقول العالم الأثري سيتن لويد في كتابة (فن الشرق الأدنى القديم): ((وأقدم نموذجين وأشهرهما وصلا إلينا كانا من (الوركاء) أوروك القديمة، ويوضح النموذجان قدرة أسلوب المثّال على تكييف مختلف المواد ومنها الصوّان والمرمر. ويمثل الأول بقايا مسلّة رسم عليها مشهد من مشاهد الصيد.. أما الثاني فيمثل أصيصاً حجرياً طويلاً نقش سطحه نقشاً بارزاً في صفوف أفقية، عليها صور من الطقوس الدينية الدقيقة...)).

وإذا قارنا بين هذه النقوش ونظيراتها المصرية بعد هذا الانتقال المفاجئ من محيط جغرافي إلى آخر، فإن الذهول سينتابنا من جراء ذلك التشابه الكبير الذي يجعل من الصعب أن نصدق أنهما لا يعودان إلى أصل واحد. وإذا تأملنا مثل هذه التطورات المتماثلة في مصر وبلاد الرافدين، خلال القرون الأخيرة من الألف الرابع قبل الميلاد، وإسهامها المشترك في نشأة الحضارة العالمية فإننا سنلاحظ الإصرار الذي يتعذر شرحه في كلا المركزين على التشابه في الأسلوب والأعراف الفنية، مما يوحي بوجود عامل مشترك غامض في عقلية شعبي هذين البلدين. هل هو غامض فعلاً؟ وفي كتاب (الحضارات السامية) للعالم الإيطالي (موسكاتي) والذي استقى مادة كتابه في معظمها من نتائج الجهود الأثرية المعاصرة.

جاء ما يلي:

إن جزيرة العرب وبلاد الشام وبلاد الرافدين تكون كلها وحدة جغرافية مترابطة الأجزاء، كانت في الأزمان الغابرة مسرحاً رئيسياً للنشاط البشري، وإن الأقوام الذين مثّلوا هذه الأحداث المسرحية لعبوا الدور المعد لهم بحجم طبيعة أحوالهم، وقد صهرتهم هذه الوحدة الجغرافية في مصير مشترك، بحيث إن أي صدفة أو حركة بحسب القطاع الواحد يمتد انعكاسه إلى الأقطار الأخرى، وإن الأقوام الذين استوطنوا هذه الأصقاع هم الذين رسموا شكل تاريخها وحضارتها في ضوء أحوال بيئتهم الطبيعية.

وربما كانت وجهة نظر العالم الجغرافي المصري الأستاذ الدكتور جمال حمدان من أوضح ما قيل بالنسبة للوطن العربي الكبير وانتماء أجزائه. ونوردها هنا كما هي ،وكما ذكره في كتابه (شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان): إن مصر لم تكن الوحيدة التي أثير حولها هذا الجدل (أي الجدل حول عروبة مصر). فالسودان وصف بأنه إفريقي وليس عربياً، والمغرب زعموا أنه بربري لا عربي، وقيل عن لبنان حيناً والشام حيناً آخر أنه فينيقي، وليس عربياً، والعراق كذلك لم ينجُ من الاتهام. بمعنى آخر أن كل أجزاء العالم العربي خارج الجزيرة العربية دمغت بصورة أو بأخرى بأنها ليست عربية، ولكنها مستعربة على أساس أن السكان قبل التعريب لم يكونوا عرباً (جنسياً). ولكن هذا الأساس ينهار من اللحظة التي يتطلب فيها (عروبة جنسية)، فالعروبة مضمون ثقافي لا جنسي أولاً. ومع ذلك فكل الغطاء البشري الذي يغطي ما يعتبر الآن العالم العربي هو أساساً فرشة واحدة من جذر واحد. وعلى الأقل فإن الاختلاط والانصهارالدموي بين العرب الوافدين والسكان الأصليين حقيقة تاريخية بعيدة المدى. على أن الذي يكشف خواء المناقشة من أساسها ويجعلها جوفاء حقاً أنها تمثل منطق مزايدة وهروب. ففي عقر دار العرب ستظل تجد (العرب العاربة) و (العرب المستعربة). ولكننا

لا نسمع من يقول: إن عرب الشمال ليسوا عرباً وإنما متكلمون بالعربية، ولا ندري إلى أي مدى يمكن المضي في تجريد جزء آخر من العرب العاربة بدورها من أصالته.

ثم يضيف الدكتور حمدان:

وكل هذا يتجاهل أن أكثر من أربعة عشر قرناً يجمع بين الجميع إطار واحد يَجُبُّ مثل هذه العرقية الشعوبية. أكثر من هذا أن العروبة نقيض الأمريكية تماماً في أصولها (على سبيل المثال)، فالأخيرة نشأت من هجرة أجزاء من شعوب متناثرة، لتتصاهر وتتصهر معاً في بوتقة وطن جديد عبر المحيط، بينما أن العروبة قامت من هجرة جزء من شعب واحد لتتصاهر وتتصهر مع شعوب متباينة في أوطان قديمة متلاصقة. الأولى تحولت في الواقع إلى أوروبا الصغرى. بينما خلقت الثانية بلاد العرب الكبرى.

إن أول ما يواجهنا هو أن الفرشة الجنسية الأساسية التي كانت تغطي نطاق الصحارى في العالم القديم، من المحيط إلى الخليج كانت تنتمي إلى أصل واحد متوسطي، وفي العصر المطير حين كانت الصحراء سافانا يسودها الصيد في العصر الحجري القديم، كانت كثافة السكان مخلخلة جداً، ولكنها غطائية عالمية عميمة بصفة عامة. وفي هذا الإطار كانت الحركة والهجرة والترحل ظاهرة دائمة، ومن ثم كان الاختلاط الجنسي أساسياً ولامحل لعزل أو نقاوة ما.

وكل الذي حدث بعد ذلك مع عصر الجفاف أن تجمعت كل مجموعة من هؤلاء السكان في رقعة محددة، وبذلك تحول الغطاء العالمي إلى الأرخبيل الجزري الذي نعرفه الآن. ومنعى هذا أنه حدث تقطع في الغطاء القديم جنسياً إلى عدة رقع متباعدة جغرافياً، ولكنها تظل متجانسة جنسياً، وهذا بالدقة مفتاح أنثروبولوجيا عالمنا العربي..

فشعوب المنطقة قبل العرب والإسلام هم أساساً وأصلاً أقارب انفصلوا جغرافياً ابتداءمن العراق إلى الشام إلى الجزيرة العربية، ومن مصر إلى المغرب أو السودان، والتوطن المحلي والمؤثرات الدخيلة الموضعية والتزاوج الداخلي الذي حدث بعد ذلك، لا يمكن أن ينتج أكثر من ابتعادات محلية ضئيلة لا تغير من وحدة الأصل الدموي، وتجانس العرق في كثير منها، وإن تطورت اللغات والألسن ما بين (ساميٍّ) و (حاميٍّ)، ويظل العالم العربي أو بيت العرب الجغرافي الكبير هو (دوار العرب) بمعنى الأسرة الموسعة التي تضم عدة أسر نووية أو خلوية.

وفي ختام هذا الحديث نؤكد على ضرورة الاهتمام بالشواهد التاريخية، والتراث الحضاري ضمن استراتيجية عربية متكاملة وتصور عربي أصيل، يقوم على صورة الماضي كما نفهمه نحن، وكما تدل عليه الشواهد دون أن نضيع في نهج التجزئة والتقسيم وما أسهل ذلك..! لقد أتى على أمتنا حين من الدهر تكالبت فيه العوادي على تراثنا الحضاري العريق، وطمع فيه الطامعون وأمعنوا فيه نهباً وسلباً، وكان فيهم العدو الحاقد والطامع الجشع، وفي الحالين كان الهدف هو طمس شخصية هذه الأمة وتشويه صورتها التاريخية الأصيلة، وكانت القوى الاستعمارية في العصر الحديث هي الأشد عدواناً والأكثر طمعاً، فكان أن عملت على تهريب كثير من ممتلكاتنا الثقافية، وأغرقت في نهب كنوزنا التاريخية، فكان بها متاحفها وزينت وعمرت بها متاحفها وزينت بها مدنها وعرضتها سلعاً للبيع في أسواقها.

ولم نفق نحن العرب في هذا القرن من غفلتنا الطويلة إلا وقد طمأ السيل حتى غاصت الركب، ولم ننتبه إلى أهمية آثارنا وإلى خطر نهبها وتهريبها إلا بعد أن ضاع الكثير وتلف الأكثر، ومع ذلك كله والحمد لله فمعدن الخير لا ينفد، والمورد العذب شديد الزحام، وما تبقى كثير وكثير، وسيبقى إلى ما شاء الله. مادام أهله حريصين عليه، ويذودون عنه، ويعنون به سعياً نحو وضع الأسس الصحيحة والواضحة، التي سيقوم عليها مستقبل استراتيجية عربية لحماية الآثار والحفاظ عليها والتنقيب عنها ودراستها وفق منهج تكاملي شامل. والعمل على حمايتها وإحيائها وإبرازها، ووضع الخطط اللازمة لتنسيق العمل فيها بحيث تتجاوز الصيغ المحلية، إلى صيغ تتخطى الحدود القائمة وتهتدي بالجغرافية والتأريخ كظلال للأرض والإنسان، كل ذلك من أخص واجبات الأمة. وكما أن التأريخ هو ذاكرة الأمة ، فإن المعالم الأثرية الباقية على امتداد الوطن العربي هي أجراس الذاكرة، التي تدق في عالم النسيان، وهي الحجج الدامغة التي تثبت الحق وتقطع بالهوية العربية، وهي ومضات الماضي التي ينبغي أن تسطع في بلاد العرب، تلك الأرض التي تغنى بعروبتها شاعر عربي فذّ، ودون قصتها بأحرف من

نور، والشعر كما قيل: ديوان العرب وسجل وقائعهم.

بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان
ومن مصر إلى يمن
إلى نجد فتطوان
فلا حد يباعدنا
ولا دين يفرقنا
لسان الضاد يجمعنا
بعدنان وقحطان
لنا مدنية سلفت
سنحييها وإن دثرت
ولو في وجهنا وقفت
ملوك الإنس والجان

وعلى الرغم من أن التراث الحضاري العربي في مجمله (ليس نتاجاً بسيطاً واحداً)، ولا ينتمي لعصر محدد، أو بقعة واحدة أو جماعة معينة، وإنما مركب ثقافي معقد، فيه أشتات من شواهد الماضي، ورواسب الزمن والحياة والسلوك، إلا أنه مع ذلك يتميز بوحدة أساسية مستمرة، تستمد جوهرها من أصول مشتركة، وخصائص مميزة في الجغرافيا والتأريخ واللغة والسجايا، وتتناقل بوعي أو دون وعي من جيل إلى آخر. والواقع المعاش اليوم يجسد هذه الوحدة، كمحصلة تنتمي إليها شتى فروع التراث الحضاري في الوطن العربي. ولا ريب أن هذه المحصلة التراثية لا يمكن استيعابها اليوم دون فهم الإسلام (دين التوحيد ومنظومة قيمه الدينية)، الكامل في نسيج هذا التراث التكويني، بل إنه من المتعذر الحديث عن تراث حضاري عربي محض دون إسلام. جاء في كتاب (تراث الإسلام): ((إن كلمة تراث استُخدمت في الكتاب بمعنيين اثنين: إنها تعني إسهام الإسلام في إنجازات النوع الإنساني بكل مظاهرها، وتعني اتصال الإسلام ولقائه وتأثيراته على ما يحيط به من العالم غير المسلم)). ويعتبر الكتاب أن أهل تراث الإسلام هم العالم المسلم. وفي صميم هذا العالم العرب، الذين هم مادة الإسلام وحملة رسالة الإسلام، ومن أرضهم انطلقت الدعوة، وكان صاحبها عربياً، وبلسانهم تنزل القرآن الكريم حتى قيل: إن كل قول بعده لا يخرج عن كونه بعض حواشيه وإنه جمع فأوعى جوهر ما قبله. وجاء فيه: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون. قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾ (الزمر: 27/39-28).

والتراث العربي بهذا المعنى هو تراث إسلامي حقاً، ولا يمكن الحديث عن التراث الحضاري العربي دون الحديث عن الإسلام.

فالتراث الحضاري العربي في محصلته ذو هوية عربية إسلامية، ولا يمكن الحفاظ عليه دون استلهام القيم الدينية تثبيتاً لأركان تلك الهوية.

كما أن التراث الحضاري بكونه شكلاً ثقافياً يعكس الخصائص البشرية،وظاهرة أساسية للوجود البشري... لابد وأن ننظر إليه في إطار المنجزات البشرية: ((قول إنساني وعمل إنساني وسلوك إنساني متوارث، ولهذا ينبغي أن لا تضفى عليه صفة القداسة، أو صفة الحقيقة المطلقة التي تفرض على المعطيات الأزلية، كالعقيدة التي قوامها الإيمان والقرآن الكريم والسنة النبوية))، وإنما ينبغي أن ينظر إليه نظرة موضوعية، وفي إطار عملية الإبداع الإنساني دائبة الحركة، والتي تجري كمياه النهر وتتجدد كل لحظة.

وتصور مفهوم التراث الحضاري بهذا المعنى على المستوى العربي والإسلامي، لا يتناقض بالضرورة مع أي تصور جاء على المستوى المحلي، فالوحدة لا تلغي التنوع بوصفها ضرورة اجتماعية تاريخية، تقتضيها أحوال كل موطن من مواطن العرب.

إن الخطاب الذي يتناول التراث الحضاري، ضمن تقسيمات حدودية للوطن العربي، لا يعني إنكار أو أنه أغفل وحدة التراث الحضاري العربي، وإنما يضع في اعتباره ترامي بقاع هذا الوطن العربي الكبير وامتداد الزمن الذي شكل عناصر ذلك التراث، بحيث أضحى يحمل في مكنونه اتجاهات عامة ونزعات خاصة. وكما لا يمكن إغفال وحدة معطيات التراث واتجاهاته، لا يمكن في الوقت نفسه تجاوز خصوصية كل بلد عربي، ولونه الوطني وشميمه المحلي، علماً بأن أصالة كل قطر عربي مرتبطة حقاً بشخصية الأمة العربية الأكثر شمولاً، والتي تتجاوز حدود الهوية القطرية التي هي في حقيقة الأمر موصولة بتكامل، وبصورة فريدة بالتراث الحضاري الموحد، إذ لم ينقطع سندها اللغوي والتاريخي والجغرافي والثقافي على مرّ العصور، كما ارتبطت في صلب مضمونها كمّاً وكيفاً وزماناً وفكراً وتأريخاً، فهي لا يمكن إلا أن تكون متوحدة بها. ○

al-Musnad

Journal of Antiquities

History & Cultural Heritage of Yemen

Vol. 1 • No.1 • 2001